الكشوف الجغرافية في قارة آسيا

اختلاف الكشوف الجغرافية في آسيا عنها في إفريقيا:

اختلفت الكشوف الجغرافية في آسيا عنها في إفريقيا وقارات العالم الجديد، إذ لم تكن آسيا، عن الرغم من اتساعها، مجهولة تحتاج إلى كثير عناء للكشف عن مجاهلها.

فقد سادت حضارات عريقة معظم أجزاء القارة، كتلك التي ظهرت في الصين، وفي شبه القارة الهندية وآسيا الوسطى.

كما كان لظهور الأديان السماوية الثلاثة: اليهودية، والمسيحية والإسلام، على أرض القارة أكبر الأثر في كشف القارة، إذ نشطت الرحلات الدينية والتجارية من شتى البقاع إلى مهبط تلك الديانات.

عامل آخر لعب دورًا أساسيًا في تعرف الأوربيين على معظم مناطق آسيا من زمن بعيد، وهو الموقع.. إذ تعتبر آسيا وأوربا كتلة واحدة من اليابسة (أوراسيا).

وعلى الرغم من ذلك، فقد ظلت أجزاء نائية من القارة مجهولة، ساعد على ذلك عوامل من أهمها:

- اتساع مساحة القارة.
- وجود جبال أورال، التي تعتبر الحدود الطبيعية بين آسيا وأوربا.. وتمتد بطول 2400 كيلومتر خلال الجزء الغربي من روسيا، وتمتد جنوبًا بدءًا من الدائرة القطبية حتى حدود قازاخستان.. ونظرًا لانخفاض الحرارة فوق تلك الجبال، فلم يقم الكثيرون بمحاولة اختراقها وكشف مجاهلها، وما وراءها.
- وقوع الأجزاء الشمالية من القارة في نطاق الدائرة القطبية، حيث الظروف المناخية القاسية، من ثلوج وبرودة شديدة، كما هو الحال في سيبريا.
- في المقابل، الحرارة الشديدة في بعض مناطق القارة، وندرة المياه، خاصة المناطق الصحراوية، بما لا يناسب الرجل الأوربي، كما هو الحال في شبه الجزيرة العربية، وبخاصة في الربع الخالي.

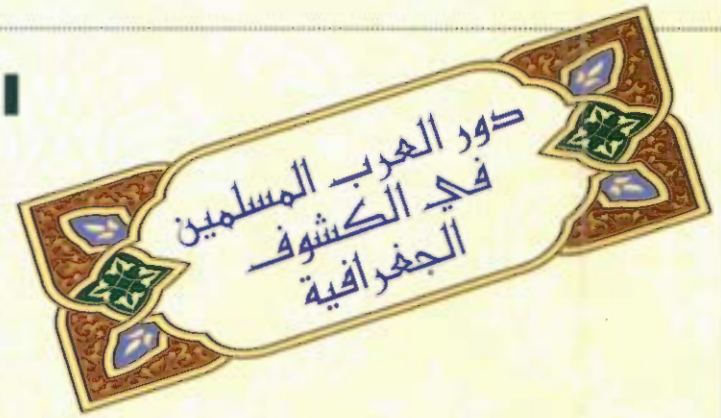

عُرف العرب، منذ القدم، بحبهم الفطري للسفر والترحال والتجارة، ولم يكن لهذا الطموح الغريزي حد، فقد توغلوا في بلاد الدنيا شرقًا وغربًا، وشمالاً وجنوبًا، وخاضوا البحار، إلى أن بسطو جناحيهم على شطري العالم القديم.

وجاء الإسلام، الذي بزغ نوره من شبه الجزيرة العربية، فحمل المسلمون الأوائل لواء نشره في كل بقاع الأرض، وكان هذا الدافع من أهم عوامل ازدهار الكشوف الجغرافية في قارة آسيا على وجه الخصوص.. وما أن انتهى القرن السابع الميلادي وبدأ القرن الثامن، إلا وقد أصبح للعرب ملك واسع الأرجاء.. حيث فتحوا بلاد ما وراء النهر، وبلاد فارس، وأفغانستان، والأندلس.. وامتدت دولتهم من حدود الهند شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا..

وأصبح معظم أجزاء القارة كأنه وطن واحد، كثرت فيه الرحلات من وإلى شبه الجزيرة العربية لتلقي العلوم الشرعية، وأداء فريضة الحج التي أوجبها الإسلام على أتباعه.. وعرف العرب المسلمون الطرق الداخلية للقارة، ووصلوا إلى جزر الملايو، والهند الشرقية حاملين لواء الإسلام.

وكان من نتيجة ذلك أن برز من العرب كثير من الجغرافيين والرحالة، الذين جابوا البلاد، ووصفوها، ورسموا خرائطها.. ومن أشهرهم:

الخوارزمي:

أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي، أصله من خوارزم، بآسيا الوسطى، وُلد عام 780م، وتوفى ببغداد عام 847م، برز في عصر الخليفة المأمون، وبتوأ منزلة رفيعة، حيث صار رئيسًا لدار الحكمة، وواحد من كبار الفلكيين بمرصد بغداد.. برع في علوم شتى، منها، وهو ما يهمنا هنا، علم الجغرافيا، ومن أبرز مؤلفاته كتاب (صورة الأرض)، حيث صحح فيه آراء بطليموس، وضمنه خرائط أدق من خرائط بطليموس.. قال عنه المستشرق الإيطالي كارلو نيللينو Carlo Nillino: إنه ما من أمة أوربية كان في مقدورها تأليف مثل هذا الكتاب في فجر نشاطها العلمي.. كما ألّف كتاب (تقويم البلدان).. كما رسم الخوارزمي تصورًا لوادي النيل، وشارك في قياس محيط الأرض.

السيرافي:

تاجر من أصل عراقي، اسمه سليمان، ويعرف لدى الأوربيين بسليمان التاجر، ظهر في القرن التاسع الميلادي.. كان مقيمًا بسيراف، وكانت يومئذ ميناءً فارسيًا.

كان محبًا للتجارة.. فاجتاز بحار الهند، مارًّا بسيلان (سريلانكا)، وملقا، ووصل الصين، وسجل رحلاته في كتاب.. وصف فيه الطرق التجارية وصفًا دقيقًا، وعادات الشعوب في البلاد التي زارها، وأهم منتجاتها.. وفي رحلته عن الصين يقول: (عند أهل الصين حشيشًا يشربونه بالماء الحار يُقال له الساخ -يقصد الشاي-، وفيه مرارة، ويغلي الماء ويذر عليه منه).. كما يذكر السيرافي في كتابه إلى أن بصم أصابع اليد عوضًا عن الإمضاء كان أمرًا مألوفًا في الصين!

وتعتبر رحلة السيرافي هذه أساسًا لما أُلّف بعد

ذلك من قصص السندباد البحري، وما جاء فيها من أخبار عجيبة!!

ابن خرداذبة:

أبو القاسم عبد الله بن خرداذبة.. فارسي الأصل قدم إلى بغداد وتولّى إدارة البريد والخدمة السرية في إقليم الجبال.. وقد مكنه ذلك من الحصول على معلومات قيمة عن الأماكن النائية، والطرق الموصلة إليها..

أقام ابن خرداذبة في سامراء على نهر دجلة، وألّف كتابه (المسالك والممالك) عام 844م.. وهو أول كتاب جغرافي عربي يتضمن دليلًا لأشهر البلدان والطرق المؤدية إليها.. كما تناول فيه وصف الصين وكوريا واليابان.. كما ذكر الطرق التجارية التي تربط بلدان العالم العربي والإسلامي، وأهمها طريق الحرير الموصل إلى الصين.

ابن فضلان:

أحمد بن عباس بن رشيد، كان مولى لأحد الخلفاء العباسيين، وكان وافر العلم.

في عام 921م أرسل ملك الصقالبة (البلغار)، إلى الخليفة العباسي يطلب منه أن يرسل إليه من يعلمه شرائع الإسلام، ويبني له مسجدًا وحصنًا.

رحب الخليفة بهذا الطلب، وعهد به إلى أحمد ابن فضلان.

في عام 921م غادر الوفد برئاسة ابن فضلان بغداد، ووصل إلى ديار الصقالبة بعد رحلة استغرقت أحد عشر شهرًا، لقى فيها العديد من المشاق والصعاب.

وفي طريق العودة إلى بغداد، دوّن ابن فضلان وصف رحلته، وكان ما كتبه مرجعًا لمن جاء بعده كالأصطخري، والمسعودي، وياقوت الذي أخذ عنه الكثير في (معجم البلدان).

رحلة ابن فضلان ← رحلة سليمان التاجر

اليعقوبي:

أحمد بن أبي يعقوب بن واضح العباسي.. قام برحلات طويلة شملت أرمينيا، وإيران، والهند، ومصر، وبلاد المغرب.. ثم عاد إلى بغداد حيث توفى بها عام 897م.

ألّف كتاب البلدان، حيث وصف فيه البلاد التي زارها، ودوّن ملاحظاته بدقة عن المظاهر الطبيعية والمجتمعات البشرية هناك، لذا يعتبر في طليعة المهتمين بالجغرافيا البشرية.

obeikandl.com

الاصطخري:

اسحق أبو إبراهيم بن محمد، عاش في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي، ألّف كتابه (الأقاليم) وضمنه العديد من الخرائط، كما ألف كتاب (المسالك والممالك) وصف فيه البلاد التي زارها، وقد اعتمد كثيرًا على مؤلفات ابن فضلان.

المسعودي:

أبو الحسن علي بن الحسن، يتصل نسبه بعبد الله بن مسعود.. نشأ في بغداد، وقد كانت آنذاك مركزًا للعلم، اشتهر المسعودي بكونه مؤرخًا وجغرافيًا.. حيث زار بلاد فارس، والهند، وسيلان (سريلانكا).. ثم رافق جماعة من التجار إلى الصين، وعبر المحيط الهندي حتى وصل زنجبار، وسواحل إفريقيا الشرقية، ومدغشقر.. كما طاف بآسيا الصغرى، والشام، والعراق، وعمان.. وأخيرًا استقر بمصر حيث توفى عام 957م.

كتب المسعودي عشرات الكتب، ضاع منها الكثير، مثل كتاب (أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية، والممالك الدائرة).

أما أهم كتبه التي وصلت إلينا فهو كتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر)، تعرض فيه لاستدارة الأرض، وإحاطتها بغلاف جوي وبحث طبيعة العواصف في الخليج العربي والمناطق المجاورة.. كما شرح ظاهرة المد والجزر.

ابن حوقل:

أبو القاسم محمد بن العلي الموصلي، بدأ رحلته من بغداد عام 943م، وعاد إليها بعد نحو 30 عامًا.. زار العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه، حتى دخل بلاد البلغار، ووصل إلى أعالي نهر الفولجا.. ألّف كتاب يحمل اسم (المسالك والممالك) والملاحظ أن كثيرًا من الجغرافيين ألفوا كتبًا بهذا الاسم.

على الرغم من أن البوصلة اخترعت في الصين، إلا أن العرب كانوا أول من استخدمها.

المقدسي:

أبو عبد الله محمد بن أحمد، وُلد في بيت المقدس، وعاش في القرن العاشر الميلادي.. اشتهر المقدسي بدقة الملاحظة، فطاف معظم بلدان العالم الإسلامي، وسجل رحلته في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) يقول عنه: (..ليعلم الناظر في كتابنا أنا لم نصنفه جزافًا، ولا رتبناه مجازًا، ويميزه من غيره، فكم بين من قاسى هذه الأسباب- أي ما لا قاه في أسفاره ورحلاته من مشاق- وبين من صنف كتابه في الرفاهية، ووضعه على السماع!).

كما أنه ضمن كتابه خرائط ملونة للبلاد التي زارها، يقول: (ورسمنا حدودها، وخططها، وحررنا طرقها المعروفة بالحمرة، وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة، وبحارها المالحة بالخضرة، وأنهارها المعروفة بالزرقة، وجبالها المشهورة بالغبرة، ليقرب الوصف على الأفهام).

obeikandl.com

الإدريسي:

الشريف الإدريسي، وُلد في سبتة بالمغرب عام 1100م، وينسب إلى الأسرة الإدريسية العلوية التي يمتد نسبها للإمام علي بن أبي طالب.. ويُعد الإدريسي أعظم الجغرافيين على الإطلاق حتى عصر الكشوف الجغرافية الأوربية (أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وأوائل القرن السادس عشر).

وصل إلى قرطبة طلبًا للعلم، ثم غادرها وطاف الأندلس، وشمال إفريقيا، وآسيا الوسطى، ووصل إلى شواطئ فرنسا وجنوب إنجلترا، وأخيرًا زار صقلية عندما دعاه ملكها النورماني روجر الثاني Roger II، بعدما علم بفضله وعلمه.. كان روجر الثاني محبًا للعلم، فأكرم الإدريسي الذي ظل بضيافته نحو عشرين عامًا.. وهناك ألّف كتابه الجغرافي المشهور (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، وهو ما عُرف أيضًا باسم (كتاب روجر).

يقول الإدريسي في مقدمة الكتاب عن سبب تأليفه: (فلما اتسع سلطانه -يقصد سلطان روجر- أراد أن يعرف كيفية بلاده، ويعلم أشكالها، وحدودها، ومساكنها برًّا وبحرًا.. فطلب الكتب التي ألفت في الجغرافيا والأقاليم، فلم يجد ذلك مشروحًا فيها مفصلًا. فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن، فباحثهم فلم يجد عندهم أكثر مما في الكتب، فبعث إلى سائر بلاده، فأحضر العارفين فيها، فسألهم عنها وباحثهم فيها، فما اتفق عليه رأيهم، وصحّ عندهم نقلُه أبقاه.. وما اختلفوا فيه أرْجأه، وأقام في ذلك خمس عشرة سنة.

فلما تمّ كل شيء أمر أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة (كرة) عظيمة الجرم، ضخمة الجسم، في وزن 400 رطل، ثم أمر الفَعَلة أن ينقشوا عليها صورة الأقاليم السبعة ببلادها، وأطوالها وأقطارها، وسبلها، وريفها، وخلجانها، وتجارها، ومجاريها، ونوابع أنهارها، وغامرها، وعامرها، وما بين كل بلد وغيره من الطرقات المطروقة، والأميال المحدودة، والمسافات والمراسي المعروفة، ولا يغادروا فيها شيئًا).

ثم طلب روجر من الإدريسي أن يؤلف له كتابًا يصف الكرة الفضية، فوضع له كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق).. ومما يؤسف له أن هذه الكرة فقدت بعد وفاة روجر!

ظلت خريطة الإدريسي أصح ما رسم من الخرائط حتى ذلك الوقت، لدقتها.. وضح فيها منابع النيل، حيث حددها على شكل بحيرات، وهو ما أكدته الكشوف الجغرافية فيما بعد.

وجدت مؤلفات الإدريسي اهتمامًا كبيرًا من المختصين على الصعيدين العربي، والأوربي.. حيث طبعت هذه المؤلفات طبعات مختلفة وبعناية فائقة.

△ خريطة الشريف الإدريسي

obeikandl.com

ابن جبير:

رحالة أندلسي، وُلد في بلنسيه عام 1145م، وأقام في غرناطة، وغادرها قاصدًا الحج. سارت به السفينة بمحاذاة سواحل سردينيا وصقلية، حتى وصل إلى الإسكندرية، ومنها ركب النيل إلى القاهرة، فصعيد مصر، ثم إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر، ومنه عبر إلى جدة، ثم مكة، حيث أقام بها ستة أشهر، ثم قصد المدينة، ومنها إلى مدن العراق والشام.. ومن هناك استقل سفينة للصليبين الذين سيطروا على معظم سواحل الشام آنذاك، حتى وصل صقلية.. وفي إبريل عام 1185 عاد إلى غرناطة، بعد رحلة استغرقت نحو 26 شهرًا، لاقى خلالها الكثير من الأهوال والمخاطر.

دون ابن جبير أخبار رحلاته في مذكرات شبه يومية عُرفت باسم (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار).. وقام بنشرها المستشرق الإنجليزي رايت W.Wright عام 1852، ثم صدرت طبعة ثانية منها عام 1907 راجعها المستشرق الهولندي دي خويه.

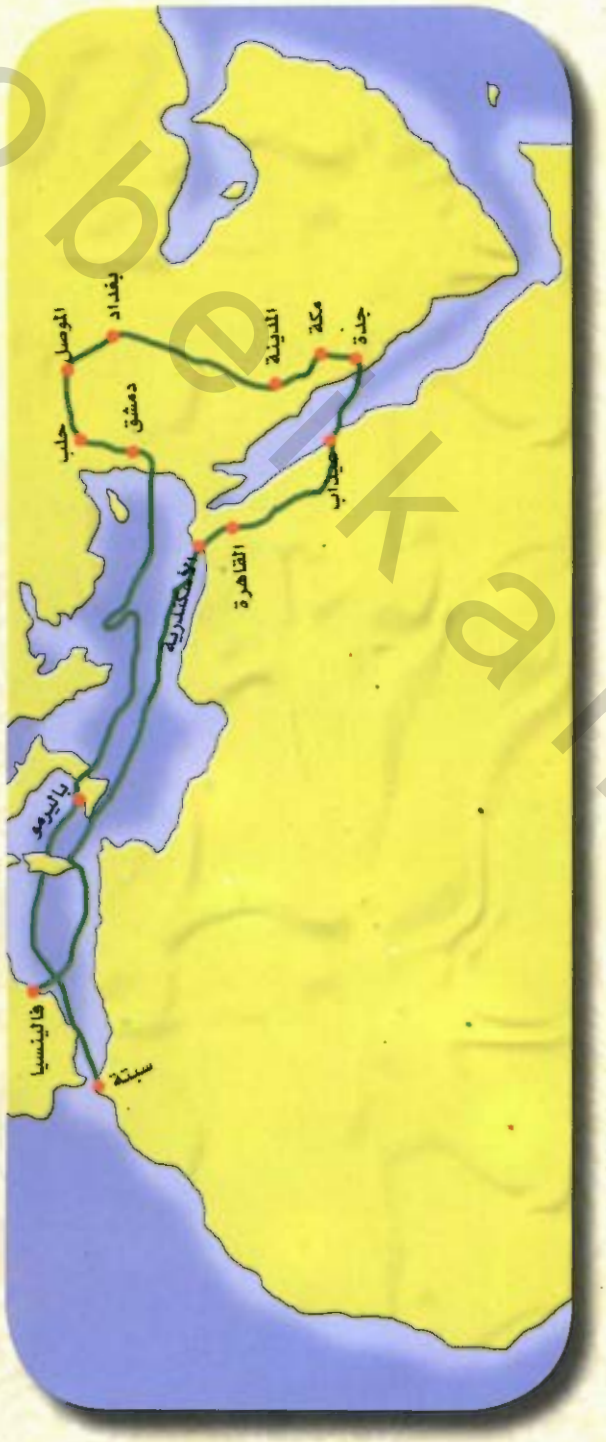

△ خط سير رحلة ابن جبير

△ خريطة بطليموس

obeikandl.com

وفي عام 1955 أصدره الدكتور حسين نصار الأستاذ بجامعة القاهرة طبعة محققة مشكولة.

قدَّم ابن جبير في مذكراته وصفًا دقيقًا لمصر والشام وقت أن بدأت فيهما حركة التحرير ضد الصليبين أيام نور الدين وصلاح الدين.. وامتازت مذكراته بقوة الملاحظة والصدق.. فقد رفض تصديق الخرافات والحوادث الخارقة التي كانت سائدة آنذاك واستفاد من تلك المذكرات الجغرافيون والرحالة الذين جاءوا من بعده.

ياقوت الحموي:

عاش في القرن الثاني عشر الميلادي، وهو صاحب أهم موسوعة جغرافية في الأدب العربي، وهي كتاب (معجم البلدان).. سافر في رحلات تجارية واسعة، زار خلالها العديد من دول آسيا، فجال في إيران، وبلاد العرب، وآسيا الصغرى، ومصر، والشام، وبلاد ما وراء النهر.. وحيثما حلّ كان يعكف على تدوين ما في خزائن هذه البلاد من الكتب.

وبعد اجتياح المغول لشطر عظيم من العالم الإسلامي، واختفاء الكثير من الكتب والمؤلفات القيمة، أحسّ الحموي بالحاجة إلى مرجع عام يجمع ما تفرق من المواد الجغرافية المعروفة في عصره، فعكف على جمع ما دونه من خزانة الكتب في موسوعته الشهيرة (معجم البلدان)، التي جمع فيها خلاصة رحلاته على مدى نحو 16 عامًا، وفي حديثه عن الأقطار والمدن والقرى، يفسر الاسم وأصله، وتاريخ النشأة، والدور التاريخي، وفتح المسلمين لهذا الموضع.. وأسماء كبار العلماء الذين نشأوا في هذا الموضع أو زاروه، أو ماتوا فيه.. وما فيه من أبنية وقلاع، وعادات السكان وأخلاق القبائل.

وأصبح (معجم البلدان) موسوعة جغرافية لا غنى عنها إلى اليوم، على الرغم مما طرأ على المعارف الجغرافية من تغيير!!

ابن بطوطة:

أشهر الرحالة العرب، عاش في القرن الرابع

تمبكتو عاصمة إمبراطورية مالي في القرن الرابع عشر. وقد شهدت عصورًا من الازدهار بفضل تجارتها الرائجة في الذهب والملح.

obeikandl.com

عشر الميلادي.. زار، تقريبًا، جميع بلدان العالم الإسلامي آنذاك، بدأ رحلته عام 1326 من مدينة طنجة، وأنهاها عام 1353 في مدينة فاس، قطع خلالها نحو 175 ألف ميل!

زار ابن بطوطة المدن الكبرى بشمال إفريقيا، ثم معظم المدن المصرية، ثم فلسطين والشام.. ثم الأراضي الحجازية، فالعراق، فبلاد فارس.. ثم عاد إلى جدة والساحل الشرقي لإفريقيا، ثم اليمن وعُمان والبحرين، ثم قصد آسيا الصغرى، وشبه جزيرة القرم، وجنوب روسيا، وبلاد البلغار والقسطنطينية، وبخاري وأفغانستان.. ثم دلهي بالهند، وهناك تولّى منصب القضاء لمدة خمس سنوات.. ثم قصد جزر المالديف، وسيلان، والبنغال، وإندونسيا، والصين.

ثم عاد إلى بلاد فارس (إيران) والعراق وفلسطين، ثم إلى مصر وتونس وسردينيا، ثم المغرب والأندلس.

وقد توغل ابن بطوطة في إفريقيا حتى وصل تمبكتو بمملكة مالي، ومن هناك عاد إلى فاس.

والغريب أن ابن بطوطة لم يؤلف كتابًا، أو يسجل مذكرات، وإنما كان يقص على ابن جزي الغرناطي أخبار رحلاته، فيقوم ابن جزي بإعادة صياغة تلك الأخبار وترتيبها حسب زمن حدوثها.

وقد أردنا في هذه العجالة أن نوضح دور الرحالة العرب والمسلمين، في كشف قارة آسيا، وتسجيل ملاحظاتهم خلال رحلاتهم، تلك المذكرات التي استفاد منها الرحالة الأوروبيون الذين جاءوا بعد ذلك.. إلا أن دورهم وأهدافهم اختلفت تمامًا عن دور وأهداف الرحالة العرب والمسلمين.. **فكيف كان ذلك؟**

الأوربيون والكشوف الجغرافية في آسيا

لم تختلف أهداف الأوربيين كثيرًا من كشوفهم الجغرافية في آسيا عن أهدافهم من كشوفهم في إفريقيا.. إذ كان التبشير بالمسيحية في مختلف أرجاء القارة أهم تلك الأهداف، على الرغم من أن القارة هي مهد الأديان السماوية!

ولعل الحروب الصليبية، التي جاءت الكشوف الجغرافية مكملة وامتدادًا طبيعيًا لها، خير دليل على ذلك.

بدأت الحروب الصليبية عام 1096م، واستمرت لفترات متقطعة نحو 200 عام.

وإذا كانت الحروب الصليبية قد اعتمدت على الجيوش المنظمة، فقد اعتمدت الكشوف الجغرافية على الإرساليات التبشيرية إلى شتى بقاع القارة.

• ففي عام 1245م بعث البابا إنوسنت الرابع ممثلًا له، هو الراهب الفرنسيسكاني جون بلانو دي كاربيني Jhon Plano de Carpine ليبشر بالمسيحية في بلاد المغول (منغوليا حاليًا)، ويقيم علاقات ود وصداقة مع حاكمها (الخان).. وعاد الراهب من رحلته التبشيرية وقد جمع الكثير من المعلومات عن المغول وبلادهم.

• وفي عام 1253 أرسل لويس التاسع، ملك فرنسا، ممثلًا آخر إلى بلاد المغول، هو الراهب الفرنسيسكاني وليام روبروك W.Rubruk.. كان لويس التاسع يأمل أن ينجح روبروك في إقناع الخان بتبني المسيحية، ومن ثمّ يصبح حليفًا له ضد المسلمين، إلا أن روبروك فشل في مهمته التي استغرقت نحو عامين (1253-1255)، وعاد إلى بلاده ليحدث الأوربيين عن الثروات الضخمة التي يرفل في نعيمها شعوب شرقي آسيا.. الأمر الذي زاد من شغف الأوربيين باستيلاء على تلك الثروات ونهبها، كما حدث في بلاد العالم الجديد، فكثرت رحلاتهم إلى معظم أنحاء القارة.

كان الأوربيون يهدفون من رحلاتهم هذه، بالإضافة إلى نشر المسيحية، إلى تطويق المسلمين، وإقامة علاقات تجارية مباشرة مع شرق آسيا، دون أن يكون للعرب دور في ذلك.. إذ كانت البضائع الآسيوية التي يجلبها الأوربيون تصل إلى الشرق العربي عبر البر أو البحر، ثم تنقل عبر القوافل العربية إلى موانئ البحر المتوسط، ليتم شحنها إلى أوربا.

أراد الأوربيون أن يقطعوا الطريق على العرب والمسلمين، ويحرموهم من عائد تلك التجارة.. وكان لهم ما أرادوا، خاصة بعدما اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح!!

رحلات ماركو بولو:

في نحو عام 1250م قام تاجران من البندقية (فينيسيا الإيطالية)، وهما الأخوان نيكولو ومافيو بولو Nicolo& Maffeo Polo برحلة طويلة، حيث استقر بهما المقام في الصين، التي كانت خاضعة آنذاك للإمبراطورية المغولية، تحت قيادة القائد المغولي قبلاي خان Kublai Khan، ابن القائد المغولي الشهير جنكيز خان.

رحب قبلاي خان بالأخوين بولو، ومكثا هناك فترة طويلة عادا بعدها إلى البندقية محملين بالهدايا والتحف، ورسالة من الخان إلى البابا.

وفي عام 1271 عادا الأخوان بولو إلى الصين مرة أخرى، حاملين معهما ردًا من البابا على

رسالة الخان ومصطحبين ابن نيكولو ويدعى (ماركو بولو)، كان عمر ماركو آنذاك 17 عامًا.

أبحر الثلاثة من البندقية إلى عكا في فلسطين، ثم ركبوا الجمال من هناك وعبروا صحاري آسيا وجبالها، حتى وصلوا إلى قصر قبلاي خان في شانجدوا، بعد رحلة استغرقت نحو ثلاث سنوات.

كان (ماركو) يتمتع بذكاء شديد، فأعجب به الخان، وأنزله منزلة خاصة، وأصبح محل ثقته، فارتقى أعلى المناصب بحكومة الخان.. وظل ماركو يعمل بخدمة الخان من عام 1275 إلى عام 1292، قام خلال ذلك بالعديد من الرحلات في أرجاء الإمبراطورية المغولية الواسعة، زار خلالها التبت، وكان أول أوربي يصل إلى هناك، كما زار بورما (ميانمار) وكتب عن شعبها ومعابدها.

في عام 1292 بدأ الثلاثة رحلة العودة إلى البندقية، زاروا خلالها جزيرة جاوا الأندونيسية، وجزيرة سيلان (سريلانكا)، والموانئ الغربية لشبه القارة الهندية، حتى وصلوا مضيق هرمز، الذي يصل خليج عُمان بالخليج العربي.. ثم سلكوا الطريق البري حتى وصلوا ترابزون Trabzon في شمال تركيا على البحر الأسود، ومن هناك أبحروا إلى البندقية.

وعندما وصلوا البندقية كانت الحروب قد نشبت بينها وبين جنوا.. ولسبب ما زُجَّ بماركو في السجن، حيث عكف على تسجيل رحلاته في كتابه الذي أسماه (وصف العالم)، ذلك الكتاب الذي زاد من اهتمام أوربا بآسيا والصين، فكثرت رحلات الأوربيين إلى هناك.

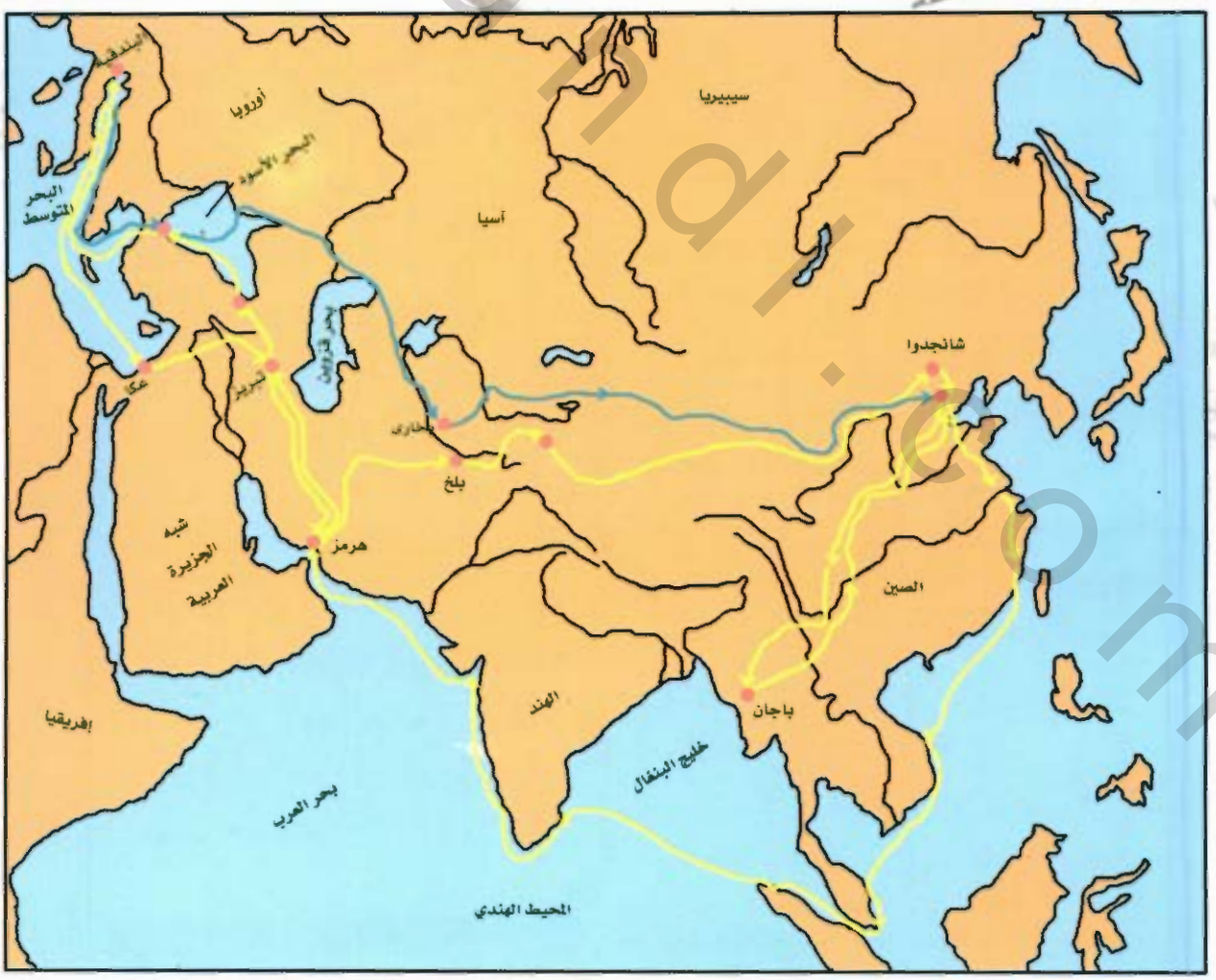

△ رحلات ماركو بولو

الرحلات الأوربية في شبه الجزيرة العربية

شكلت شبه الجزيرة العربية عائقًا أمام الرحالة والمستكشفين الأوربيين ويرجع ذلك لأسباب، أهمها:

- الظروف الطبيعية والمناخية القاسية، من حرارة شديدة، وندرة المياه، وبيئة صحراوية، وكلها ظروف لا تلائم طبيعة الرجل الأوربي.
- كانت الجزيرة العربية مهدًا لرسالة الإسلام، وسكانها جميعًا يدينون بالإسلام، وبالتالي فلا مجال للتبشير بالمسيحية فيها.
- وجود الأماكن المقدسة هناك (مكة والمدينة)، وهي أماكن محظور على غير المسلمين ارتيادها.

وعلى الرغم من ذلك فقد سلك العديد من الرحالة الأوربيين طرقًا ملتوية لينفذوا إلى قلب شبه الجزيرة العربية، فتظاهروا بالإسلام، بعد أن تعلموا اللغة العربية، وبعضًا من أحكام الشريعة الإسلامية، كما سيتضح فيما بعد.. ومن أشهر الرحالة الأوربيين الذين جابوا شبه الجزيرة العربية:

لودوفيكو دي فارتيما Ludovico di Varthema:

وهو رحالة إيطالي، ويعتبر أول رحالة غير مسلم يزور منطقة الحجاز.

بدأ فارتيما رحلته إلى الأراضي الحجازية من القاهرة عام 1503، بعد أن تظاهر بالإسلام، وأطلق على نفسه اسم (الحاج يونس المصري)، ولحق بقافلة حجاج مصرية.. وبعد أن أتم مناسك الحج ترك القافلة واتجه جنوبًا صوب اليمن، منتحلًا شخصية تاجر أسلحة، إذ كان العرب آنذاك في حاجة للأسلحة في حروبهم ضد البرتغاليين.

ومن شبه الجزيرة العربية وصل إلى شبه القارة الهندية، ثم جزر الهند الشرقية، وتذكر بعض المصادر أنه وصل أستراليا.

استمر فارتيما في رحلته من عام 1503 حتى عام 1509، حيث عاد إلى البرتغال التي كان يعمل لحسابها عن طريق رأس الرجاء الصالح، ثم إلى إيطاليا عام 1510، لينشر كتابه الذي ضمنه وصفًا دقيقًا للأماكن المقدسة، وكذا وصفًا لرحلة الحجاج وكيف يؤدون مناسك الحج.. كما وصف في أثناء عودته سواحل شرق إفريقيا وبعض جزر المحيط الأطلسي.

يقول الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ في مقدمة الطبعة العربية لرحلات فارتيما[1]: رحلة فارتيما (1503-1509) حول العالم، هي الجناح البري، إن صح التعبير، لجهود البرتغاليين في اكتشاف الطرق المؤدية إلى ثروات الشرق عامة، والهند خاصة، وجهودهم كذلك لتطويق العالم الإسلامي، استمرارًا لما كانوا يسمونه حرب الاسترداد.

وهذه الرحلة زامنت -تقريبًا- رحلات فاسكو داجاما، الذي وصل إلى كلكتا، بعد الدوران حول

(1) رحلات فارتيما، إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثاني.

إفريقيا، عام 1498، ووصلها في رحلة أخرى عام 1502.. فبينما كان فارتيما يبحر من البندقية قاصدًا مصر فالشام، فالحجاز، فاليمن، فالخليج، فبلاد فارس.. إلخ، كانت الأساطيل البرتغالية تقيم المحطات التجارية على السواحل الهندية وتقصف مدنها!!

وإذا كانت مهمة داجاما قد انتهت باكتشاف الطريق البحري للهند، فإن مهمة فارتيما كانت أكثر تعقيدًا، فقد كان مكلفًا بوصف عادات الشعوب التي يمر بها في طريقه للهند، وفي الهند نفسها، وكتابة تقارير عن جيوشها، خاصة ما يتعلق بالمدافع، وحصر منتجاتها الزراعية والصناعية، خاصة ذات القيمة التجارية العالمية.. وباختصار، فإن مهمته كانت التجسس الشامل على كل الشعوب والجماعات التي مرَّ بها، خاصة الإسلامية منها!

قدّم فارتيما نفسه لأهل الحجاز واليمن، وسكان الخليج العربي، وبلاد فارس، باعتباره الحاج يونس المصري، أو يونس المملوك المصري.. أما في بلاد الهند فقد قدم نفسه باعتباره الحاج يونس العجمي (الفارسي)، وذلك بمعاونة صديق له فارسي كان قد تعرف به في مكة المكرمة!!

لقد لعب هذا الفارسي دورًا خطيرًا أتاح لفارتيما التغلغل في المجتمعات الإسلامية في الهند.. بل لقد بالغ الفارسي في تقديم فارتيما للبسطاء حينما وصفه بالدرويش الصوفي، فما كان من هؤلاء البسطاء، بجهلهم، إلا أن قبلوا يديه التماسًا للبركة!!

وتمكن فارتيما من التجول بحرية في كل الأماكن هناك، حتى دخل الموانئ، ومعسكرات الجنود، وكتب عنها تقاريره التي قدمها - كما يقول في مذكراته - إلى نائب ملك البرتغال في الهند!!

شهادة للتاريخ

يختتم فارتيما مذكراته عن رحلاته بهذه الشهادة التي سجلها التاريخ لتؤكد عنصرية البرتغاليين، ومدى حقدهم على المسلمين، وعلى وحشيتهم في تدمير العديد من المدن والموانئ الإسلامية، سواء على طول سواحل إفريقيا، أو على طول السواحل الهندية.. يقول فارتيما: (والآن، لقد أزف ميعاد العودة لبلادي، لأن القائد بدأ يشحن الأسطول للعودة للبرتغال، فقد ظللت بعيدًا عن بيتي وحبي سبع سنين محتفظًا بمشاعري الطيبة إزاء وطني، ولأحمل لوطني جانبًا كبيرًا من العالم، فسألت سيدي نائب الملك الإذن في الرحيل، فتفضل بالموافقة، ورغب إلى أن أذهب معه أولًا إلى حيث سأقص عليك.

لقد ارتدى نائب الملك، وكل من معه - خلا العدد القليل الذي بقي في كوشن- الدروع البيض. وفي الرابع والعشرين من نوفمبر، شننا هجومًا على ميناء (باناني[1]) وفي هذا اليوم عسكرنا قبالة الميناء، وفي صبيحة اليوم التالي، قبل طلوع النهار بساعتين، دعا نائب الملك كل من في الأسطول لحضور اجتماع وأخبرهم أن (باناني) قد شنت على البرتغاليين حروبًا كثيرة أكثر مما فعلت أي منطقة هندية أخرى، لذا فهو يرجونا جميعًا أن نهجم عليها بإصرار ورغبة فهي- أي باناني- أقوى من أي مدينة أخرى على السواحل الهندية.

ولما أنهى نائب الملك حديثه ألقى القس عظة أبكتنا جميعًا، وجعلت كثيرين يودون- حبًا في الرب- أن يموتوا في هذه المعركة. وقبيل اتضاح النهار بقليل بدأنا أعنف حرب ضد هؤلاء الكلاب البالغ عددهم ثمانية آلاف. بينما كان عددنا حوالي ستمائة. لكن الحقيقة أن السفينتين من النوع ذي الشراعين لم يفيدا كثيرًا لعدم قدرتهما

(1) 34 ميلًا إلى الجنوب الشرقي من كلكتا، على الشاطئ الجنوبي لنهر يحمل الاسم نفسه.

على الاقتراب كثيرًا من الساحل، بعكس الحال بالنسبة للقوارب. وكان الفارس المقدام (دون لورنزو) ابن نائب الملك، هو أول من وثب للساحل، وتلا ذلك وصول قارب نائب الملك الذي كنتُ فيه، وفي الهجوم الأول دارت معركة قاسية، بسبب ضيق النهر جدًا في هذا الموضع. كما كان على حدود المدينة عدد كبير من المدافع، استولينا على أكثر من أربعين قطعة منها. وفي هذا الهجوم كان هناك أربعة وستون مسلمًا قد أقسموا على النصر أو الشهادة لأن كلًا منهم كان قائد سفينة، لذلك فقد أطلقوا نحونا في الهجوم الأول كثيرًا من قذائف المدافع، لكن الرب ساعدنا فلم يقتل منا أحد، بينما قتل منهم حوالي مائة وأربعون شخصًا كان من بينهم ستة قتلهم في حضوري دون لورنزو، وقد جرح منهم كثيرون.

لقد وصلت المعركة ذروة القسوة بعد وقت قصير من بدايتها، لكن بعد تمكن السفينتين التابعتين لنا، وهما من النوع ذي الشراعين من الساحل، بدأ هؤلاء الكلاب يتراجعون، ولما بدأ الجزر لم نعد قادرين على مطاردتهم أكثر من ذلك، وبدأ هؤلاء الكلاب يتزايدون، فقذفنا النار على سفنهم، فاشتعلت منها ثلاث عشرة سفينة كانت في غالبها جديدة وضخمة. ثم سحب نائب الملك كل مقاتليه إلى البر الرئيسي، حيث منح رتبة الفارس لبعض المقاتلين، وكنت من بين هؤلاء بفضل من نائب الملك، الذي منح الرتبة نفسها لأكثر القادة شجاعة وهو (ترستان دا كوجنا)، الذي كان ضامنًا لي.

وبعد ذلك بدأ نائب الملك في الاشراف على ركوب مقاتليه، وإن استمر في إحراق منازل كثيرة في باناني (بقصفها)، وقد تم كل هذا بفضل الرب دون أن يموت منا أحد. وأبحرنا إلى (كانو نور) فزود قائدنا السفينة بالمؤن بمجرد وصوله[1].

كانت هذه شهادة فارتيما، عقلها قلبه، ونطقها لسانه، ودونها قلمه، وحفظها التاريخ.. وهي بالطبع شهادة لا تحتاج إلى تعليق!!

(1) رحلات فارتيما. ترجمة وتعليق د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ. إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب.

جوزيف بيتس[2] Joseph Phitts:

يعتبر بيتس ثاني أوربي يزور الأماكن المقدسة في شبه الجزيرة العربية، وأول بريطاني وأصغر رحالة يقوم بهذه الرحلة، وذلك بعد أن ادعى الإسلام وسمَّى نفسه (الحاج يوسف).

وهو أول رحالة في التاريخ الحديث يصف طريق الحج الغربي، أو درب الحجاج البري والبحري، من بلاد المغرب، مرورًا بمصر، حتى الديار المقدسة بشبه الجزيرة العربية.

وُلد (بيتس) في إكسون Exon بإنجلترا، ويصفه الرحالة (بيرتون) بالذكاء الشديد، وحبه للمعرفة.. غادر (بيتس) إنجلترا عام 1678، وهو في الخامسة عشرة من عمره، على متن إحدى السفن، في الفترة التي كان فيها الصراع على أشده في البحر المتوسط بين البربر والمروسكيين (المسلمون الذين طردوا من إسبانيا) تؤازرهم الدولة العثمانية، من ناحية، وقوى الاستعمار الأوربي ممثلة في إسبانيا والبرتغال من ناحية أخرى.

وقع (بيتس) أسيرًا في يد أحد البحارة الجزائريين، وعاش مع سيده الجزائري بضع سنين، ثم اصحطبه في رحلة الحج إلى مكة والمدينة المنورة.

أبحر (بيتس) مع سيده من الجزائر حتى وصلا الإسكندرية، ومنها إلى رشيد، ثم أبحر في النيل إلى القاهرة، ومنها إلى السويس، فالطور، فرابغ على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، ثم إلى جدة.

وفي طريق العودة أصيب (بيتس) بالطاعون، وشفي منه في الجزائر، وبعد ذلك أعتقه سيده،

(2) راجع رحلة جوزيف بيتس (الحاج يوسف) إلى مصر ومكة والمدينة. إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب. ضمن سلسلة الألف كتاب الثاني. ترجمة ودراسة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ.

obeikandl.com

وعاش هناك فترة كانت كافية لأن يكون على دراية كبيرة بتلك البلاد، وعادات أهلها، وثقافة المسلمين بصفة عامة.. وكثيرًا ما كانت تراوده فكرة الهرب إلى أوربا..

رأى (بيتس) كيف أن الأوربيين يقبلون على اعتناق الإسلام بمحض إرادتهم، وعن قناعة كاملة، ويفضلون الإقامة في الجزائر.. وكان هذا الأمر يحزنه كثيرًا!

جوزيف بيتس

ويقرر (بيتس) في كتابه الذي أصدره بعد ذلك عام 1704 (حقائق عن الإسلام) أنه لم ير، ولم يسمع، أن المسلمين أجبروا أحدًا على التحول إلى الإسلام في الجزائر أو مصر أو الحجاز.

أتيح لبيتس فرصة الإبحار مرة أخرى خارج الجزائر، وذلك عندما أرسل السلطان العثماني للجزائر طالبًا سفنًا، وسمح لهذا الإنجليزي المتحوّل إلى الإسلام بالركوب على متن إحداها، بناءً على توصية من السيد باكر Baker، القنصل الإنجليزي بالجزائر، إلى السيد راي Raye، القنصل الإنجليزي في تركيا.

وعلى متن السفينة، راح (بيتس) يفكر: هل يهرب إلى بلاده، أم يعود مرة أخرى إلى الجزائر ليعيش بقية حياته؟ إلا أنه فضل الهرب.. فمن تركيا أبحر إلى جنوه على متن سفينة فرنسية، وتنقل من إيطاليا إلى ألمانيا وهولندا.. ولما عاد إلى إنجلترا شكر الله لعودته لأرض المسيحية الأوربية، وفي إنجلترا واجه بعض المتاعب، فندم على تركه للجزائر، إلا أن أموره استقرت فيما بعد.

قدّم (بيتس) وصفًا لرحلته، من وجهة نظر مسيحي أوربي.. إذ وصف مناسك الحج بالخرافات، ووصف الحجاج بالوثنيين.. ولم يخل وصفه من الأكاذيب، وفي رحلة الحج يقول (بيتس):

(كان معنا أيرلندي مرتد (يريد أنه تحول من المسيحية إلى الإسلام)، أخذوه صغيرًا جدا لدرجة أنه لم يفقد دينه المسيحي فقط، بل ولغته الإنجليزية كذلك.. وهذا الرجل عانى من العبودية ثلاثين عامًا في إسبانيا، وفي السفن الفرنسية.. لكنه بعد ذلك تحرر وعاد للجزائر، وكان الناس ينظرون إليه كرجل صالح تقي متدين، لأنه لم يترك العقيدة الإسلامية رغم تعرضه للغواية كي يتركها.. وأذكر أننا عندما وصلنا إلى مكة قال لي بعاطفة جياشة أن الله سبحانه نجاه من جهنم الأرض، ويقصد بها فترة عبوديته في إسبانيا وفرنسا، وأن الله سبحانه قد مكّنه من الوصول إلى جنته على الأرض، ويقصد بها مكة.. وقد عجبتُ كثيرًا لفرط حماسه وإيمانه، لكنني أشفقت عليه!!).

كارستن نيبور Carsten Neibur:

وهو مستكشف ورياضي ألماني، عمل في خدمة ملك الدنمارك فردريك الخامس.. وشارك في رحلة علمية تهدف إلى دراسة شاملة عن الشام والجزيرة العربية، ومصر..

كان (نيبور) قد أعد نفسه لهذه الرحلة فدرس الرياضيات، وعلم المساحة والخرائط، بجانب اللغة العربية..

obeikandi.com

كارستن نيبور

وبدأت الرحلة في يناير من عام 1761، ووصل أفرادها إلى الأسكندرية، ثم القاهرة، ثم سيناء، وفي عام 1762 غادر (نيبور) إلى السويس، ومنها أبحر إلى جدة، ثم غادرها إلى المخا في اليمن..

كتب (نيبور) عن المناطق التي زارها، ورسم خرائطها، وكتب عن سكانها وقبائلها وأديانها.. وطالت فترة بقائه في اليمن، حيث وصف معظم مدنها.

أصاب الإعياء (نيبور) ورفاقه، ومات بعضهم في اليمن، إلا أنه تحامل على نفسه وأبحر إلى الهند، وشُفي هناك، عاد بعد ذلك إلى مسقط، وتجوّل بها وكتب عنها، ثم قصد إيران فالعراق، ومكث في بغداد فترة طويلة، ثم قصد الموصل ومنها خرج إلى الشام.

وفي عام 1767 زار (نيبور) اسطنبول، ثم فلسطين، ومنها أبحر إلى قبرص، ليعود إلى وطنه عام 1770، حيث تقلد عدة مناصب رسمية في الدنمارك، وسجل رحلاته في مجموعة من الكتب أهمها:

- وصف الجزيرة العربية.. ونشر في كوبنهاجن باللغة الهولندية عام 1722، ويضم الكتاب وصفًا شاملًا للجزيرة العربية، وشبه جزيرة سيناء.. مع ذكر القبائل العربية والأمراء والأعيان، والمذاهب الدينية السائدة.. كما ضم الكتاب مجموعة من الخرائط والصور.

- رحلات إلى بلاد العرب وبلدان أخرى محيطة بها.. ونشر عام 1774، وأعيد نشره عام 1837، ثم ترجم إلى العربية عام 2007.

توفى (نيبور) عام 1815.

بوركهارت :

سبق أن ذكرنا رحلات لويس بوركهارت Jhon Lewis Burckhardt في قارة إفريقيا، أكمل بوركهارت رحلاته في الشرق، فزار شبه الجزيرة العربية، ساعده في ذلك ادعاؤه الإسلام، وارتداؤه الملابس الشرقية، وأطلق على نفسه اسم (الشيخ إبراهيم بن عبد الله).

جاء (بوركهارت) إلى الشرق موفدًا من قبل الجمعية الإفريقية في لندن، بعد أن أعدّ لهذه المهمة إعدادًا جيدًا، فدرس اللغة العربية، وبعض أحكام الشريعة الإسلامية، إذ قضى في حلب نحو سنتين لهذا الغرض، ثم غادرها متوجهًا إلى مصر عن طريق فلسطين، ممتطيًا الدواب تارة، وسيرًا على الأقدام تارة أخرى.

وعلى الرغم مما لاقاه (بوركهارت) من صعاب ومشاق، إلا أنه كان يرى أن التجول في الشرق أكثر متعة من التجول في الغرب.. ويرى أن وطأة الشمس الحارقة ولدغ الحشرات في الشرق له سحره الخاص!!

في عام 1814 قصد (بوركهارت) شبه الجزيرة العربية، ووصل إلى الأراضي الحجازية وأدى فريضة الحج، ثم قصد المدينة المنورة.

سجل بوركهارت مذكراته في كتاب ضخم (رحلات إلى شبه الجزيرة العربية)[1] صدر عام 1829.

(1) صدرت الطبعة العربية منه عام 2005 عن مؤسسة الانتشار العربي.

obeikandi.com

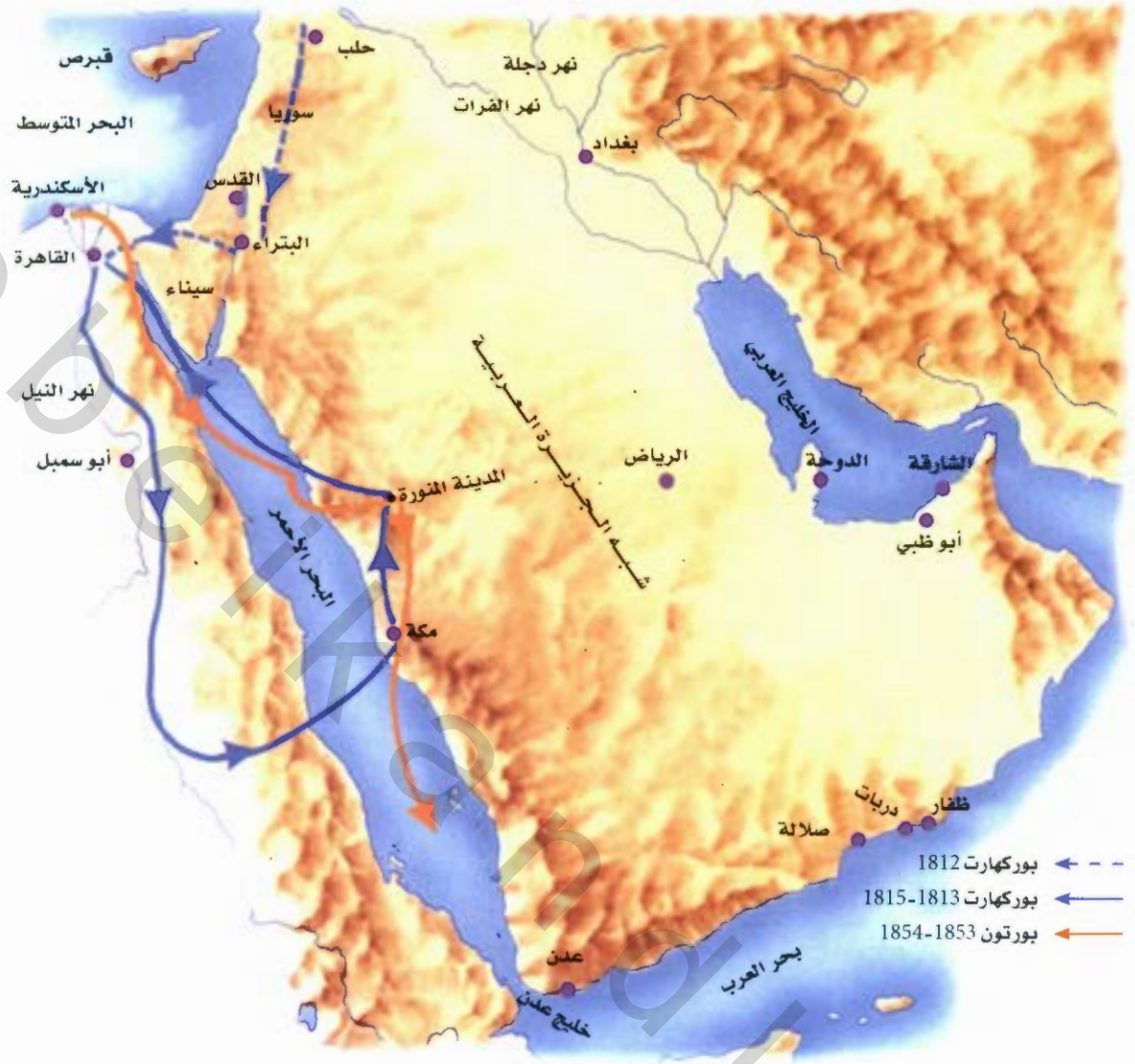

ريتشارد بيرتون Sir R.Burton:

سبق أن تكلمنا عن رحلات بيرتون واستكشافاته في قارة إفريقيا..

بدأ بيرتون رحلته إلى شبه الجزيرة العربية من السويس عام 1853، بعد أن ادعى الإسلام، ولبس ملابس حاج مسلم.. وقد سجل مذكراته بدقة، حيث وصف المناطق التي زارها وصفًا جغرافيًا دقيقًا، كما وصف رحلة الحج وشعائره، وكان في معظم ما كتب يلتزم الموضوعية، بل كثيرًا ما دافع عن الافتراءات والأكاذيب التي ألحقها بإسلام أعداؤه، بعد ما رأى سماحة الإسلام[1].

(1) نشرت الهيئة المصرية العامة للكتاب الترجمة الكاملة لرحلة بيرتون في ثلاثة أجزاء، ضمن سلسلة الألف كتاب الثاني، ترجمة ودراسة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ.

ألفونسو دي ألبوكرك (1453-1515):

لم يكن مستكشفًا جغرافيًا، بل كان سفاحًا صليبيًا.. استولى على مدن المسلمين وتجاراتهم في الخليج العربي وساحل الهند.. وذبح الرجال واغتصب النساء!!

وُلد ألفونسو دي ألبوكرك Alfonso de Albuquerque لأسرة عسكرية برتغالية، والتحق بالخدمة العسكرية في سن مبكرة.. وخدم في العديد من الحملات العسكرية البرتغالية التي حاربت المسلمين في شمال إفريقيا، خاصة في مراكش وطنجة.. كما شارك في العديد من الحملات العسكرية على طول سواحل إفريقيا لتأمين المراكز والطرق التجارية البرتغالية هناك.

obeikandl.com

عاد ألبوكرك إلى البرتغال عام 1503 ليعمل في البلاط الملكي، ثم عينه الملك مانويل الأول Manuel I قائدًا لقوة بحرية لتأمين الطرق التجارية البرتغالية من رأس الرجاء الصالح وحتى الهند، بعدما زاد العداء للبرتغاليين في المنطقة نتيجة تعرضهم للمراكز التجارية العربية والإسلامية بالنهب والتخريب، كما حدث من داجاما وغيره.

أبحر ألبوكرك إلى كوشين Cochin على ساحل ملبار جنوبي الهند، وعقد اتفاقية مع راجا الهندوس تسمح للبرتغاليين بإنشاء المستوطنات والمراكز التجارية هناك.

في عام 1505 عين البرتغاليون حاكمًا لإدارة تلك المستوطنات هو دوم فرانسيسكو أميدا Dom Francisco Almeida، الذي أحكم قبضته على ساحل ملبار وجزيرة سيلان (سيريلانكا الحالية).

وكان ألبوكرك قد عاد إلى لشبونة في صيف 1504، وبعد عامين عُيِّن قائدًا لحملة بحرية تهدف إلى تدمير تجارة العرب في الهند.. فدخل البحر الأحمر، وفي بداية عام 1507 أنشأ حصنًا في جزيرة سوقطرة بخليج عدن، وبالتالي أحكم سيطرته على طرق التجارة العربية التي لم يعد لها منفذ سوى الخليج العربي.. وكان لابد من تدميره أيضًا!!

في أغسطس 1507 أغار (ألبوكرك) على ميناء هورمز الاستراتيجي (المدخل الرئيسي للخليج العربي)، ودمره تمامًا.. ويا لفظاعة ما قام به ذلك السفاح الصليبي!!

لقد أسر العديد من السكان، وعاملهم بكل إجرام ونذالة!!

فقد أمر بالرجال فتقطع أياديهم اليمنى وتجدع أنوفهم.. أما النساء فتجدع أنوفهن وتقطع آذانهن!!

لقد كانت جرائم (ألبوكرك) في الخليج العربي أكبر من أن تحصى، فقد دمَّر السفن العمانية الراسية في الموانئ، وكانت نحو 83 سفينة، كما خرَّب مسقط وخورفكان، بعد أن كانت من الموانئ المزدهرة، واحتل صحار..

لقد كان العمانيون، وغيرهم من سكان ساحل الخليج العربي، يعيشون في رخاء وازدهار، قبل أن يصل إليه البرتغاليون.. لقد خرَّب البرتغاليون على العرب تجاراتهم ودمروا موانيهم، وأخضعوها لسيطرتهم.. وكتب البوكرك عن مسقط يقول:

(إن مسقط مدينة ضخمة كثيرة السكان، فيها بساتين وحدائق ومزارع للنخيل، وبرك من الماء لريها بواسطة محركات خشبية، أما ميناؤها فصغير وله شكل حدوة الحصان، يوفر الوقاية من الرياح.. كانت مسقط في الآونة الأخيرة سوقًا لنقل الخيول والتمور، وهي مدينة على درجة كبيرة من الجمال والأناقة، ومنازلها بديعة جدًّا، تموَّن من المناطق الداخلية بكميات كبيرة من القمح والذرة والشعير والتمور، تكفي لتحميل كل السفن التي تأتي إليها).

▲ البوكرك، السفاح الصليبي، الذي دمر الموانئ الإسلامية في الخليج العربي، وقتل سكانها، إبان حكمه للهند البرتغالية

لقد أبت نفس البوكرك الحاقدة أن ينعم العرب بما حباهم الله من خيرات.. لذا رأى أنه لازامًا عليه أن يخرب تلك النعم ويبيد أصحابها!!.

إن هذه الوحشية لم يكن لها مبرر سوى الحقد الدفين في قلب (ألبوكرك) تجاه المسلمين، وسيأتي المزيد من تلك الوحشية، مما لا يدع مجالًا للشك في أن ما قام به (ألبوكرك) وأمثاله

obeikandi.com

لا يمت للكشوف الجغرافية بصلة، وإنما هو سلب ونهب وقتل، وإفساد في الأرض باسم الدين ونشر الكاثوليكية.

في أثناء ذلك أرسل (ألبوكرك) حملات عسكرية استطلاعية في عمق البحر الأحمر والخليج العربي.. جمعت المعلومات عن تلك المناطق ورسمت خرائطها بدقة.

في عام 1509 تم تعيين (ألبوكرك) حاكمًا عامًا للهند البرتغالية، فرأى أن كوشين Cochin لم تعد مناسبة لأن تكون قاعدة للوجود البرتغالي في الهند، فقاد حملة عسكرية للاستيلاء على ميناء جوا Goa، الذي يشغله التجار المسلمون.. كانت الحملة تتكون من 20 سفينة، 1500 جندي، كما استعان بالمرتزقة من الهندوس وبعض القراصنة.. وفي مارس 1510 دمر البرتغاليون المدينة بعد حصار استمر ثلاثة أشهر، وارتكب (ألبوكرك) هناك من الفظائع ما لا يمكن وصفه، حيث أمر جنوده بذبح الرجال ذبح الخراف، واغتصاب النساء!!

كان (البوكرك) شيطانًا، لا تعرف الرحمة طريقًا إلى قلبه.. لم يقنع بما حققه للبرتغال من مكاسب جمة، بل أرسل إلى ملك الحبشة (المسيحي) يقترح عليه أن يساعده في حفر قناة من النيل إلى البحر الأحمر لحرمان مصر المسلمة من مياه النيل، وتحويلها إلى أرض صحراء!

بل يذهب إلى ما هو أخس من ذلك، فيضع خطة جهنمية بموجبها يتمكن من اختطاف جثة الرسول ﷺ، ثم يساوم المسلمين عليها مقابل التخلي للأوربيين عن فلسطين!!

في عام 1511 صدرت الأوامر إلى (ألبوكرك) بالإبحار إلى ملقا وجزر الهند الشرقية لمساعدة (دي سكويرا) في الاستيلاء على ميناء ملقا، الذي تم الاستيلاء عليه في نفس العام، وبالتالي أصبح المحيط الهندي بحرًا برتغاليًا!!

كان سكان ملقا من المسلمين، ودخلها ألبوكرك بقوة مكونة من 17 سفينة، 1200 مقاتل.. أمر ألبوكرك بقتل السكان المسلمين والهندوس إن لم يتحوَّلوا إلى الكاثوليكية!!

في عام 1514 أجبر البرتغاليون على التنازل عن جزيرة سوقطرة، وفي عام 1515 داهم المرض (ألبوكرك) وهو في حملة عسكرية في خليج هرمز، ومات في البحر في مقابل ساحل جوا، وذلك في ديسمبر من نفس العام!.

قلعة برتغالية في جزيرة هرمز على مضيق هرمز في إيران.

رحلات ألفونسو دي ألبوكرك

ديجو لوبيز دي سكويرا (1465-1520):

قائد أول بعثة أوربية إلى جزر التوابل..

قليلة تلك المعلومات عن حياة دي سكويرا Diego Lopes de Sequeira إلا أن إنجازاته، وما ترتب عليها، ظلت باقية ومؤثرة أكثر من إنجازات العديد من المستكشفين الذين اشتهروا وذاع صيتهم!

قاد (دي سكويرا) أول بعثة أوربية ناجحة إلى جزر التوابل (إندونيسيا الحالية)، وقد هاله ما رأى. رأى حضارة زاهرة، وثروات طائلة، ومناطق تجارية عامرة.. وكان وصول دي سكويرا إلى تلك المناطق إيذانا ببدء الوجود الأوربي هناك.. هذا الوجود الذي استمر عدة قرون من الاحتلال والنهب والسلب!

في عام 1504 عُيِّن (دي سكويرا) قائدًا لسفينة حربية ضمن أسطول برتغالي متجه إلى الهند بقيادة فرانسيسكو دي أليدا Francisco de Almeida. كان الهدف من ذلك الأسطول هو تأمين الوجود البرتغالي في الهند، وكذا تأمين السفن التجارية المحملة بالتوابل.

ومن المرجح أن يكون دي سكويرا قد اشترك في حملات عسكرية أخرى مع ماجلان ودي أليدا بعيدًا من الساحل الشرقي لإفريقيا للدفاع عن المستعمرات البرتغالية على ساحل ملبار الهندي.

كانت حملات دي أليدا تهدف إلى تدمير تجارة المسلمين على طول الساحل الشرقي لإفريقيا، وتعزيز الوجود البرتغالي هناك، وذلك بإقامة الحصون والمستوطنات البرتغالية، كما حدث في موزمبيق.

تطلعت البرتغال إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث رأت ضرورة إقامة قواعد عسكرية لها في جزر التوابل ذاتها.. ففي صيف عام 1509 تم إرسال دي سكويرا على رأس حملة إلى جزر التوابل لتأسيس قاعدة في تلك المنطقة التي لم يكن يعرف عنها الكثير.. أبحر دي سكويرا من كلكتا في أسطول يتكون من 12 سفينة ووصل سيلان (سريلانكا الحالية)، واتجه نحو الجنوب الشرقي.

في أغسطس رأى دي سكويرا الجانب الغربي من جزيرة سومطرة الإندونيسية.. واستقبلهم

obeikandl.com

السكان بحفاوة بالغة، ووقع البرتغاليون اتفاق سلام وتجارة مع زعماء سومطرة.

وهناك سمع البرتغاليون عن مدينة ملقا Malacca الأسطورية، التي كثيرًا ما تردد اسمها على ألسنة تجار التوابل والهنود.. فقصدها دي سكويرا.. فوجدها ميناء مزدهرا، ومركزًا مهما لتجارة التوابل والطيوب.. تجوبه السفن التجارية من الصين واليابان وبلاد العرب.. فاتخذ البرتغاليون من ملقا أهم وأكبر موانيهم في تلك المنطقة.

شعر التجار المحليون بخطر الوجود البرتغالي على أراضيهم، وأحسوا بكساد تجارتهم، ولذا قرر الزعماء الملاويون شن هجوم على البرتغاليين.

علم دي سكويرا بما يدور حوله، وما يدبره له الزعماء المحليون، فقرر تصفيتهم، وتحين الفرصة للقبض عليهم والتخلص منهم.. وأرسل البرتغاليون قوات إضافية إلى دي سكويرا، وتمكنوا من السيطرة على ملقا، أغنى مناطق التوابل في جنوب شرق آسيا، وسيطروا تمامًا على تجارة التوابل هناك.

تابع دي سكويرا اكتشافاته في المنطقة للبحث عن المزيد من جزر التوابل، فوصل أقصى الشرق عند جزيرة ترنات Ternate، إحدى جزر مولوكا Moluccas، وعاد مرة إلى البرتغال عام 1512 بعد أن اعتلت صحته، فاعتزل الحياة البحرية، حتى مات عام 1520.

على ربوة مرتفعة تطل على مدينة ملقا، أقام البرتغاليون هذا الحصن عام 1511، إلى أن استولى عليه الهولنديون عام 1641.

القرنفل من أهم التوابل التي تكالب الأوربيون عليها، وسعوا لاحتلال مناطق إنتاجها.

فرانسيس إكسافيير (1506-1552):

المبشر اليسوعي، الذي أدخل المسيحية إلى اليابان.

جمع اليسوعي (إكسافيير) بين المبشر والمستكشف والرحالة.. أطلقت عليه الكنيسة الكاثوليكية لقب (حواري جزر الهند) وبعد موته منحته لقب قديس.

وُلد فرانسيس إكسافيير Francis Xavier لأسرة نبيلة من إقليم الباسك الإسباني.. وكان يرغب منذ صغره بالعمل إما بالجيش أو بالكنيسة.

في عام 1520 تلقى (إكسافيير) أولى دراساته الكنسية، وعندما بلغ التاسعة عشرة من عمره سافر إلى فرنسا لدراسة اللاهوت في جامعة باريس، وهناك التقى بزميله الإسباني أوجناتيوس ليولا Ignatius Loyola، الذي كان يدرس اللاهوت أيضًا.

في عام 1534 أسس (إكسافيير) و(ليولا) مع أربعة من زملائهما جميعة يسوع.

وعندما أتم إكسافيير دراسته عاد إلى فينيسيا، حيث تم ترسيمه كاهنًا، ثم ذهب إلى روما مع زملائه في الجمعية، حيث باركه البابا، وتم تنصيبه مبشرًا.. في ذلك الوقت أعلنت البرتغال عن حاجتها إلى مبشرين لنشر المسيحية في ربوع جزر الهند الشرقية، وكان (إكسافيير) ممن وقع عليهم الاختيار.. ومن هناك أبحر إلى لشبونة، ومنها إلى الهند.

وصل إكسافيير جوا Goa على ساحل ملبار في مايو 1542، وكانت جوا مركزًا للإمبراطورية البرتغالية فيما وراء البحار، ومقرًا لأسقفية جوا صاحبة المرجعية الكاثوليكية لشبه القارة الهندية والشرق.. وهناك عمل إكسافيير مبشرًا لعدة سنوات على طول الساحل الجنوبي الشرقي للهند وسيلان.

وفي عام 1547 وصل إكسافيير إلى ملقا Malacca في شبه جزيرة الملايو، وهناك قصد جزر التوابل (جزر مولوكاس أو مالوكو Moluccas or Maluku) وذلك للتبشير بالمسيحية بين سكانها.. وعلى مدى عامين كاملين ظل إكسافيير يتنقل بين الجزر الإندونسية ويؤدي عمله بنجاح.

وفي ترنات Ternate (جزيرة إندونيسية صغيرة في بحر مولوكا) تعرّف إكسافيير على تاجر ياباني يدعى أنجيرو Anjiro، وأقنعه

نصب تذكاري لاكسافيير أقيم على خليج ملقا.

obeikandl.com

بالدخول في المسيحية، أصبح أنجيرو فيما بعد من أشد المتحمسين لنشر المسيحية في الشرق الأقصى، وشجع إكسافيير على القيام ببعثة تبشيرية إلى الجزر اليابانية.

وفي عام 1549 تمكن إكسافيير من إقناع المسئولين البرتغاليين على تجهيز هذه البعثة..

كان أول اتصال للأوربيين باليابان قد حدث عام 1544، وذلك عندما ثار الإعصار المداري (التيفون) في بحر الصين، وعصف بأسطول برتغالي من مستعمرة ماكاو Macoa الصينية وقذفت به بالقرب من شاطئ ناجازاكي Nagasaki.

في 15 أغسطس عام 1549 وصل إكسافيير بصحبة أنجيرو Anjiro إلى ميناء كاجوشيما Kagoshima على الساحل الجنوبي لجزيرة كيوشو Kyushu، حيث قضى هناك سنتين ظل خلالها يجوب المنطقة يعظ ويبشر بالمسيحية، ويسجل كل ملاحظاته عن السكان وحياتهم وعاداتهم، وقد وصفهم بأنهم من أفضل من لاقاهم وصادقهم.

تمكن إكسافيير من تحويل بعض الإقطاعيين اليابانيين إلى المسيحية، وانضمامهم لعضوية جمعية يسوع التي أسسها مع صديقه أوجناتيوس ليولا.

في عام 1551 عاد إكسافيير إلى جوا ليدعم حملته التشيرية، إلا أنه في رحلة العودة هذه داهمه المرض، ومات في ديسمبر عام 1552 في جزيرة صغيرة بالقرب من ماكاو.. وبسبب نشاطه التبشيري المكثف في تلك المستعمرات البرتغالية، منحته الكنيسة لقب قديس عام 1622، أي بعد وفاته بنحو 70 عامًا!.